

# الملحمة الغزّية والسؤال عن الجماهير العربية والفلسطينية



الثلاثاء 12 ديسمبر 2023 09:11 م

## ساري عرابي كاتب فلسطيني

توقع المحلل العسكري الإسرائيلي البارز عاموس هارثيل، الثلاثاء، إنهاء إسرائيل الحرب على غزة خلال أسابيع دون تحقيق أهدافها، معتبراً الحديث عن هزيمة حركة "حماس" في قطاع غزة "سابق لأوانه".

تقود هذه المقدّمة إلى إشكالية التنظيم في البلاد العربية، بوصفها المشكلة المباشرة، لا سيّما في البلاد الأكثر التصاقاً بفلسطين، وفي بعض تجمّعات الفلسطينيين فالجماهير لا يمكنها التصرف دائماً بعقل واحد ودوافع واحدة وينحو مستمراً، فالفعل المستمّر المفتوح للجماهير غير ممكن بحكم طبائع الاجتماع، ولكن تنظيم الجماهير هو ما يضمن الإصرار على الفعل والبقاء في الميدان، وإلا فاستمرار الجماهير من نفسها نادر الحدوث، ويتطلب شروطاً موضوعيّة لا تتوفّر إلا بنحو استثنائيّ في التاريخ.

فليست القضية، والحالة هذه، غفلة الجماهير عن خطورة الحدث عليها (في حالتنا هذه خطورة المذبحة الإسرائيلية في غزّة على أهل مصر أو الأردن أو سوريا أو لبنان أو الفلسطينيين في مناطقهم الأخرى)، وإنما في غياب التنظيم أو ضعفه، وهو ما يرجع بالنقد الكاسح لكلّ الخطابات والأفكار التي كانت تروّج في العقدين الأخيرين للاستغناء عن التنظيمات! وحتى الوعي بخطورة الأحداث على غير الغزّيين أو غير الفلسطينيين لا يتأتّى إلا من فعل منظم قادر على النفاذ والتتابع والدوام، ولا يخضع لأجندة الإعلام التقليدي، أو لسيولة الإعلام الحديث، ومن نافلة القول إنّ الجماهير العربية، خضعت لظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية وأمنية متباينة بين البلاد العربية على مرّ عقود طويلة، مما يعني بالضرورة تباين خبراتها الحزبية والتنظيمية، وتفاوت وعيها السياسي، وتباعد فهمها لواجباتها، واختلاف إدراكها لقدراتها التي تنهض بمسؤولية واجباتها تلك، بل إنّ هذه الظروف المتباينة متحقّقة في واقع الفلسطينيين أنفسهم، لعمليات الفصل القهري المفروض عليهم، واختلاف الإدارات السياسية، وما يتصل بها من أوضاع أمنية واقتصادية.

لا تنفك المشكلة التنظيمية عن سياسات التجريف التي مارسها عموم النظام الرسمي العربي، بما في ذلك السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية، من إغلاق المجال السياسي، وتحريم العمل العامّ، وتفكيك القوى الحزبية، وإنهاك الفعاليات المؤثّرة واستنزافها، إلى درجة التحطيم الشامل، وهو ما تفاقم فيما يمكن تسميته بالثورة المضادة، وتحول المجال العربي لمئات القضايا القطرية والجزئية التي يُضيق ازدحامها على الفرد العربي من آفاق فهمه وتفكيره وفعله، وهو ما يقضي بالضرورة بخطأ المقارنات بين محدودية المظاهرات في البلاد العربية وبين اتساعها النسبي في البلاد الغربية، التي وبالرغم من سياساتها الرسمية المنخرطة في الحرب إلى جانب "إسرائيل" على غزّة، فإنها تتمتع بأقدار معقولة، باتت من تقاليد المستقرّة، من حرّية الحركة والتظاهر والتنظيم، وبما وقّر للجاليات العربية والإسلامية والملونين والمهمشين فرصة تنظيم مظاهرات لا تخلو من البيض الغربيين أصالة بالتأكيد.

لم يكتف النظام العربيّ بتحطيم مجتمعاته، ولكنّه سعى لعزلها عن فلسطين، واجتهد في تضخيم التيار الانعزالي في كلّ بلد عربيّ، لأسباب متعلّقة بمصالح النخب الحاكمة، وعلاقاتها بدوائر النفوذ والتأثير في الولايات المتحدة و"إسرائيل"، ولأنّ فلسطين من عوامل الاستنهاض والتحرك للمجتمعات العربية؛ التي تريدها أنظمتها الحاكمة مستكينّة وسلبية وخاضعة بالكامل.

لا توجد قضايا جوهرية لدى المجتمعات الغربية، بما في ذلك الولايات المتحدة، كتلك التي تُنهك المجتمعات العربية وتثقلها، (كالاستعمار والفقر والتبعية والتفكك السياسي مثلاً)، فضلاً عن كون شعور المجتمعات العربية بالمسؤولية تجاه فلسطين قد ينعكس بنحو سلبيّ وعلى غير المتوقع لتوهم عدم جدوى المظاهرات أو أنها دون المطلوب من العربيّ اللصيق، أو أنّ ما هو مطلوب أو مُجدٍ غير متاح، مما يعود بالأمر إلى الحاجة للتنظيم للعبئة السياسية والحشد الشعبي والتدبير لما هو أكثر جدوى.

توفّر الملحمة الغزّية، وعلى فداحة هولها؛ فرصة مجدّداً لأجل استئناف حالة سياسية شعبية تنهض بالجماهير العربية في مواجهات سياسات الطمس والهندسة، وهذا لا يتأتّى إلا من الوقوف المباشر على أسباب الخلل، والدفع نحو أفكار لتطوير التنظيمات وتجاوز إجراءات التجريف والإغلاق والتحطيم التي يمارسها النظام الرسمي.

وعلى أية حال، فإنّ مديح المجتمعات أو هجاءها سهل، ولكنّ ما هو أصعب التحرّر من الانطباعية نحو الفهم الصحيح، والاستعداد لدفع الأثمان بين تلك المجتمعات، وإلا فإنّ مطالبة المطمئنّ الآمن بعيداً عن دفع الأثمان غيرّه لتحمل التكاليف؛ دون أن يأخذ ذلك في الاعتبار على المستوى الشخصي ليكون أكثر تواضعاً، من علامات البلادة الأخلاقية، التي تكشف هذه الحرب عن الكثير من صورها المرّوعة!

